والشيخ الجزار يمضي زاجرا وهو يكرر : يا جمال ، اتق الله في دينك ، وكان الشيخ الجزار ينادي العلماء من حوله بأسمائهم ، من غير لفظة شيخ . فان معظمهم تلاميذه ، وأين هم من علمه وفضله .

ولم يهدأ الشيخ الجزار الا بعد ان نهض « جمال » وقبل يديه ظهرا وبطنا ، وهو يقول ، والله يا مولانا انا مستفسر لا مستنكر . والله سبحانه وتعالى يقول « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » .

وانفض المجلس على خير . ولكن الامر اصبح حديث المدينة كلها ، وأصبح الشيخ جمال السعدي أشهر من نار على علم ، كما يقولون ، مع انه كان قصيرا بحيث لا يراه احد ؟ !

ومضت الايام ، وانا اتطلع الى ان ازور بيت المقدس ، واقضي فيها بضعة أيام . وشاء القدر أن تتحقق رغبتي وان اقضي فيها بضعة اعوام . تتلوها فيما بعد اعوام واعوام .

كان ذلك في عام ١٩٢٤ حين تخرجت من المدرسة الثانوية في عكا ، واتجه الرأي في عائلتنا ان أتم دراستي في احدى مدارس بيت المقدس ، ففيها العلوم العالية ، وفيها اللغة الانجليزية . وهذه اصبحت لغة الحياة والمستقبل بديلا عن اللغة التركية البائدة. ولكل زمان دولة ورجال ولغة ولسان .

وسافرت الى بيت المقدس بالقطار ، والتحقت بمدرسة صهيون الانجليزية ، القائمة على جبل صهيون ، وكانت لي مع القطار ، والمدرسة والتلامذة والاساتذة طرائف فريدة، ذهبت حلاوتها مع زمانها ، فلم تعد تتكرر احداثها ، وقد اسعفتني ظروفي ، فدونتها ونشرتها ، لتكون تراثا لاجيالنا اللاحقة وصفحة من تاريخ وطننا (راجع كتابي : اربعون عاما في الحياة العربية والدولية) .

ولم تكن الدراسة قد انتظمت في الاسبوع الاول من وصولنا ، فاغتنمتها فرصة لازور مكان البراق حيث ربط النبي (ص) جواده ، فقد كانت قصة الاسراء والمعراج التي سمعتها مرات ومرات تلح علي بأن ارى موضع البراق في بيت المقدس ، قبل ان أتعرف على أي مكان اخر .

وذهبنا مجموعة من الطلاب ، على غير هدى ، نعبر باب الخليل ، ثم نسير في تلك الشوارع المبلطة وهي تنزل بنا من سوق الى سوق ، ونحن نسأل المارة عن « البراق »، وهم يشيرون : الى اليمين، الى الامام ، الى اليسار . واخيرا وصلنا الى البراق . وكان ذهول عجيب ومشهد عجاب .

كان المشهد عجيبا عجابا حقا . لقد رأينا انفسنا في زقاق ضيق لا يكاد عرضه يتجاوز ثلاثة امتار ، يمر منه الناس رائحين وغادين من حي الى حي ، وجماعة من اليهود ينوحون ، ووجوههم الى حائط قديم عال ، مبني من الحجارة الضخمة .

وقفنا مشدوهين امام المشهد ، وقد انعقد لساننا ، وتسمرت أبصارنا ، ولا ندري ما هذا الذي نراه . وأحسسنا بارتباك ، ولم نعد ندري ما نفعل .

وانحلت عقدتنا ، حينما تقدم الينا رجل في مقتبل العمر ، وسأل « وهل تريدون ترجمان » ؟

قلنا له : ترجمان من أجل ماذا ؟ نحن عرب .